هو قراري

لبست معطفي الجلدي ، رميت قبعته على رأسي و أغلقت الباب بالمفتاح و خرجت ، الأمطار تتساقط و البرد قارس .. وقفت على طرف الرصيف أنتظر وقوف سيارة أجرة لأذهب إلى بيت أمي .. فأنا منذ البارحة أعيش في دوامة كبيرة .. أمواج بحر عاتية تتخبط في داخلي و أنا هذه المرة قلقة .. يائسة أكثر من تلك الأيام التي عشتها بعد أن تخلى عني طارق .. تنبهت إلى صوت سائق السيارة و هو يسألني عن وجهتي فإذا هي غير وجهته .. فتابع سيره و قلت في نفسي .

- الأمطار ليست غزيرة، و الطريق ليست بعيدة .. و لعل السير يمتص شيئاً من القلق فأقابل أمي و زوجها مقابلة أفضل . . أنا لم أرهم منذ فترة طويلة و قبل أن يسافرا إلى الخارج لقضاء إجازة .. يومها كنت في أحسن حال و قد اطمأنت أمي لحالي و تأكدت بأنني قد تغلبت على الانهيار النفسي الذي أصابني عندما تخلى عني طارق .. اوه .. أنا لا أريد التذكر .. و لكن لا يمكن أن أنسى كيف أتاني ذلك اليوم بكلماته المقتضبة يرميها على مسامعي بكثير من القسوة قائلا أن سيسافر سنوات قد تطول و طلب مني بكل برود أن أنساه .. كنت مستعدة للانتظار .. إن ما بيننا ليس ارتباطا عاديا يمكن حله بهذه السهولة .. و قد بدا أنه كذلك بالنسبة لي أما له فقد كان سهلا للغاية .

يومها حطم كل أحلامي .. مسح بلحظة أشهرا من الحب و اللقاء .. أشهراً جعلتني أنسى شقاء حياتي كلها .. كان بالنسبة لي الإنسان المحب الذي اهتم بي و أشعرني بأنوثتي و قيمتي .. و أعاد الثقة إلى نفسي .. فوجدت فيه فرح الدنيا الذي لم أذقه .. رأيت فيه الأم التي ابتعدت عنها بطلاقها ثم فيما بعد زواجها من زميلها الطبيب ..

رأيت فيه الأب الحنون الذي يعوضني عن حزم والدي و شدته و لا مبالاته و تعذيبه لي بعد انتهائه من الكأس الثالثة أو الرابعة من خمرته الحبيبة .

عقدت آمالا كبيرة على حياتي معه .. لذلك حين أتاني راحلا لاغيا كل الحب و الأمان والاطمئنان و الفرح .. محطما بكل بساطة كل الآمال ..

انهرت .. أحسست بأنني أضعت كل شيء من جديد .. و مضت عليَّ فترة طويلة حتى استطعت أن أستعيد الثقة بنفسي و أعود إلى حياتي الطبيعية .. بل في نهاية الأمر .. أحسست نحو طارق بالامتنان لأنه صارحني و لم يخدعني و يبقيني في أحلامي و يغادر .. لكنه درس علمني الكثير .. تعلمت أن الحلم أمر و الواقع أمر آخر.. لا نستطيع خلق الواقع الذي نحلم به .. لا نستطيع تجسيد الحياة التي نريد .. بل نستطيع تجميل واقعنا بأحلامنا .. نخترعها لنزين بها واقعنا لا لنزيفه و نعتقد بأننا حصلنا على ما نحلم به .. اوه .. لقد نسيت هذا الموضوع تماما ..

صار ذكرى بعيدة تحمل اللحظات السعيدة و كثيرا من المواقف المؤلمة .. يومها والدي .. أحس ببكائي و حزني .. ربما لأنه لم يكن قد بدأ الشرب و لأول مرة في حياتي أجد أن عنده شيئا يمكن أن أسميه عطفا أو حنانا .. فقد سألني عن سبب بكائي و حزني .. طبعا لم أستطع إبلاغه الأمر .. لأنه ما كان ليقبل أن يعرف بعلاقة تجمع بين ابنته و زميلها في الجامعة و لو لم تتعدَّ هذه العلاقة اللقاءات البريئة في مقصف الجامعة .. لكن لحسن الحظ .. كان زوج أمي مسافرا و شاءت الصدفة أن تتصل بي و تطلب مني الذهاب إليها لقضاء بضعة أيام معها .. و كم ساعدتني عندما عرفت الحقيقة ..فقد كانت متفهمة ذات أفق واسع .. لا سيما أن اختصاص زوجها في الطب النفسي و قد تعلمت منه الكثير .

ها أنا اليوم متجهة إليها علها تساعدني على اتخاذ القرار الذي طلب مني والدي اتخاذه قبل يوم الخميس .

خطواتي كانت سريعة و قد قطعت أكثر من نصف الطريق .. ألقيت تحية بلهاء على إحدى الزميلات .. لم أنتبه إلا و هي تسلم عليَّ.. ما بي .. أسير دون أن أرى أمامي .

هل أنا حقا لأطلب مساعدة على اتخاذ القرار .. لقد طلبت مني مراراً أن أحاول اتخاذ قراراتي بنفسي فلم أعد صغيرة .. كلا أنا ذاهبة لرؤيتهم بعد عودتهم من السفر .. و قد أطلب مشورتها إذا كان ذلك مناسبا .. لمَ أراوغ نفسي .. أنا بحاجة إلى مساعدتها .. فقراري هذا مصيري .. و عليَّ اتخاذه قبل يوم الخميس .. الأسبوع الماضي اتصل بي والدي هاتفيا و طلب منيّ ألاأتأخر في العودة إلى البيت .. فسيحضر معه ضيفا عزيزا .. و بما أن والدي لا يحب الأصدقاء كثيرا و لا استقبال الضيوف الأعزاء .. استغربت الأمر و عرفت أن وراءه سراً ما .

عدت مبكرة فإذا به يعرفني على ابن صديق قديم له سافر منذ سنوات بعيدة إلى افريقية طلبا للرزق و قد وفقه الله و صار من الأغنياء الموسرين و قد عاد إلى البلاد في إجازة قصيرة يزور فيها الأهل و يطمئن عن الأحوال و .. لم يكمل والدي بل استأذن ضيفه ليحضر له كأسا على مزاجه .

ياه .. ياللهول .. والدي يتركني مع الضيف و يقوم بنفسه لتحضير ما يلزم .. هذا كثير .. و كثير جداً .. إذن لا بد أن يصدق خاطري .. فهذا الصديق العزيز لا بد أنه عريس لا يفرط به .. ولكن أبهذه الطريقة يتم التعارف ؟؟؟

و فيما أنا غارقة بأفكاري انتبهت إليه فإذا هو يتفحصني طولا و عرضا و كأنه يتفحص بضاعة يود شراءها .. أنا لم أقتنع يوما بهذه الطريقة معبراً إلى الزواج .. أفضل اللقاء غير المقصود و الإعجاب المتبادل و الاتفاق في الآراء ووجهات النظر .. حاولت أن أمثل دور البلهاء .. و كأنني لم أفهم سبب زيارته و تصرف والدي .. فأخذت أسأله عن عمله بشكل عام و عن وضع البلاد هناك و طريقة المعيشة و كأنني أحضر بحثاً صحفيا .. و كان العريس الخجول يجيبني بكل أدب و يحاول أن يصور البلاد التي يعيش فيها و كأنها جنة .

بعد ذهابه طلب إليَّ والدي و لأول مرة أيضاً أن أجلس معه إلى مائدة العشاء .. و أخبرني .. أن هذا الشاب الطيب الغني يطلبني للزواج و أنه قد وافق على ذلك و ينتظر موافقتي و موافقتي السريعة لأن « بسلامته » سيعود إلى مكان عمله بعد خمسة عشر يوما .

قلت له : أنا لا أمانع من التعرف عليه بشكل أعمق .. فهو يبدو لطيفا و كذلك هو يجب أن يتعرف عليَّ أكثر .. و يعرف الكثير عن مزاجيتي و عصبيتي .. لكن أن نتزوج خلال هذه الفترة القصيرة فهذا مستحيل يا أبي .. فضلا عن أنني في السنة الجامعية الأخيرة فهل يذهب تعب السنين سدى دون أن يتوج بالنجاح النهائي ؟؟؟

- أنا لا أفهم هذا الكلام .. الشاب لا يعيبه شيء ثم أن بيننا عمل و عمل كبير .. و لا أريد أن أضيع الفرصة من يدي .. أقولها لك بصريح العبارة .. لا أريد أن أفقده من أجل حفنة أفكار تحملينها في رأسك مثل كل أبناء جيلك .. التعارف .. و التفاهم و تقارب وجهات النظر .. هذه كلها أوهام و في النهاية المرأة هي المرأة و الرجل هو سيد البيت و صاحب الرأي .. احتججت على كلامه و حاولت أن أذكره بتجربته مع أمي ..

كيف أن اختلاف الأخلاق و البيئة التي ينتمون إليها أدت بهما إلى الطلاق بعد زواج لم يعش أكثر من عدة سنوات و أن الاقتناع المبدئي يكفي و المال لا يستطيع رأب الصد وع .

ما إن تفوهت بتلك الجمل حتى اندلعت في نفسه نار قوية هدمت ما كان قد بقي لديه من صبر و منطق للمناقشة فعبّ كأسه الخامسة و قال لي بشكل قاطع :

- يوم الخميس تعطيني كلمتك النهائية .. و أريد أن تكون الموافقة و إلا ستندمين شر ندامة .. أعرف أنني لا أستطيع إرغامك على الزواج به ، ولكن سيكون لي معك تصرف آخر .

لماذا أكون الضحية دائماً .. الكلام هذا سمعته و كنت ضحيته .. لكنه لم يكن موجها إليَّ .. كان موجها إلى أمي التي كانت تناقشه بسبب تغيبه الدائم عن البيت .. و أصر هو على أن هذا السؤال يعني أنها لا تثق به و تشكك بتصرفاته .. و اشتدت المعركة الكلامية .. أصرت هي على حفظ كرامتها و معرفة كل شيء عنه ... و أصرّ هو على ما أسماه حرية الرجل و قال لها :

- أريد ألاّ تراجعينني في تصرفاتي و إلا ستندمين شر ندامة و كان أن لم تتحمل أمي تصرفاته فهما من عقلين مختلفين .. هي تحترم التفاهم و هو يحب السيطرة .. و تطلقا .

و كي ينفذ وعيده حاول منعها من حضانتي .. إلاّ أن القانون كان في صفها حتى تزوجت الطبيب الذي كانت تعمل عنده كممرضة .

و عدت إليه .. كما تعود الزهرة الطرية العود إلى صحراء قاحلة لا تجد من يحنو عليها و لا من يرشها بقطرة ماء تروي عطشها فتنمو عودا ضعيفا لا حول له و لا قوة .. يستمد الحياة من الشمس و من لحظات عطف و حنان تحيطني بها أمي عند الزيارة الأسبوعية .

طرقت باب بيتها طرقات خفيفة .. ففتحت لي ورحبت بي و ضمتني إلى صدرها و عانقتني عناقا كنت بأمس الحاجة إليه ... كنت بحاجة إلى شاطئ الأمان ألقي فيه رحالي لأستريح من عناء رحلة مملة مرهقة ..

خرج زوجها لاستقبالي و ركض نحوي أخوتي غير الأشقاء .. لحظتها نسيت مشكلتي .. نسيت نفسي في غمرة الفرح .. و الحديث عن الرحلة .. و أسرع أخوتي يحضرون لي الهدايا و يتدافعون للجلوس في حضني و الحديث عن الرحلة الممتعة .

- كان ذكرك لا يفارقنا ..
- كم تمنينا أن تكوني معنا .
- ذهبنا إلى حديقة جميلة جداً و ركضنا فيها كثيراً .. كم تمنيت أن تكوني معنا لنلعب « الغميضة » معاً لأن الأشجار كثيرة هناك .
- المنزل الذي سنسكن فيه له حديقة جميلة ألا تأتين معنا لنلعب هناك .
- تعالي نعم .. تعالي إن غرفتنا هناك كبيرة و باستطاعتك أن تنامي بجانبي ...
- سأعطيك لعبتي لتنيميها بجانبك .. ألا تأتين ..
- إن شاء الله .. و لكن ماذا تقولون .. إلى أين الذهاب .. ؟؟؟
و أسرعت إلى أمي أستوضحها الخبر .

- ماذا يقول الأولاد يا أمي .. هل صحيح أنكم ستسافرون مجدداً ...
- نعم يا ابنتي .. هل تذكرين .. لقد أخبرتك منذ عدة أشهر أن عقداً مغرياً عرض على عمك للقيام ببحث في فرنسا و هو عرض مشابه كثيراً للعرض الذي نفذه منذ ثلاث سنوات .. الحقيقة أن رحلتنا لم تكن للراحة فقط (و أنت تعرفين أن الميزانية لا تسمح لنا بذلك) ... بل للاتفاق على جزيئيات العرض و رؤية المنزل المقدم إلينا و حجز أماكن للأولاد في المدارس و قد تم الاتفاق على كل شيء و بأفضل مما نريد ... حتى أنا وجدت عملاً مناسباً لي .. الحمد لله ما رأيك ؟؟

ذهلت... حتى كلمة مبروك لم ترتسم على شفاهي ..
ضمتني والدتي و قد أحست أن في الأمر سوءً .

- لا تحسبي أني نسيتك في كل هذا .. فقد سألت لك في كل المناطق القريبة منا هناك عن جميع الكليات الموجودة والتي تستطيعين فيها إكمال دراساتك العليا ووجدت أن هناك العديد منها .. و في أكثرها بيوت للطالبات .. إن شاء الله بعد تخرجك هذا العام ترسلي لي أوراقك و علاماتك و أنا أؤمن لك كل ما يلزم من التسجيل و تلتحقين بنا قبل أن يمضي على سفرنا عام .. لم أستطع الإجابة .. ذاهلة .. كأنني فقدت الوعي .. الأفكار تتدافع في رأسي .. الحزن و الأمل يتناوبان على أفكاري ... لم أستطع التركيز ..

- والدك لن يستطيع منعك من الحصول على جواز هذه المرة .. المرة السابقة استطاع ذلك لأنك لم تبلغي السن القانونية أما الآن فأنت بعد شهرين تبلغينها ... لقد فكرت بكل الأمور .. كل ما عليك هو إقناعه كي تحصلي منه على مصروف أكبر كي لا تضطري إلى العمل و تتابعي دراستك بحرية ... أيضاً إذا لم يقبل باستطاعتنا تدبر الأمر . ما بك واجمة .. و كأن وجهك لا يعرف التعبير .. ما رأيك ؟؟

- لقد فاجأتني يا أمي ... لم أتوقع أبداً أموراً كهذه .. ثم أن هناك موضوعاً .. لا بأس لا بأس .

- لا تعطيني رأيك الآن ... لم تعودي صغيرة و باستطاعتك اتخاذ القرار ...
عفواً سأذهب لأفتح الباب .

- أمي ... إذا كان القادم ضيفاً سأذهب أنا ... لن أستطيع مقابلة أحد ... تفهمين ذلك ... سأعود قريباً ... أو سأتصل بك ...

- لا بأس ... خذي وقتك ... لا تتشاءمي ... فهو مهما يكن يبقى والدك و لا بد أنه يريد مصلحتك ... أعرف أنه يكره أن يكون ذلك بجانبي ... لكن حاولي . بكثير من الوجوم قبلت أخوتي ... و انصرفت ...
لقد جئت إليها للتخلص من حيرتي فإذا بها تزيدني حيرة !!!

« القرار لك » تقولها لي دائماً ...
« لم تعودي صغيرة » رددتها على مسامعي مراراً ... قالت لي « ادرسي الموضوع من كل جوانبه ... ادرسي حسناته و سيئاته و ضعيها دون خوف و تردد أمام عينيك ثم اخذي قرارك ...

والد ي يريد لي طريقاً و أمي تريد لي آخر دون علمها بما يرسمه والدي ... و أنا ... أين أنا من الطرفين ... لقد تعبت ... أكثر ما أتعبني هو الغربة ... و هما معاً يدعواني إلى الغربة ... هل علي أن أعيش حياتي متغربة ...

سني حياتي كلها غريبة ... غريبة في بيت أبي لأنني لا أحس فيه بالأمان ... غريبة في بيت أمي لأنه ليس بيتي ... غريبة لو وافقت على الزواج و السفر ... غريبة لو لم أتزوج و سافرت لإكمال دراستي ... لقد كرهت الغربة ... كم وددت لو أحب من سأتزوج فتبتعد الغربة عن نفسي قبل الزواج فأحس معه بالأمان ... و الآن إن قبلت بعريس أبي و أنا لا أعرف عنه شيئاً فهو إما أن يكون إنساناً طيباً ، حلو المعشر ، نزيه السيرة حينها يمكن لحياتنا الزوجية أن تعيش في ظل الأمان ... و ذلك يساعدني على التخلص من عصبيتي و مزاجيتي و مللي الدائم ... و لكن الاحتمال الثاني أن يكون ذو طباع حادة ، عصبي المزاج و هذا لا يمكن اكتشافه في بضعة أيام فكيف سأتصرف حينها...أنا أيضاً عصبية المزاج لا بد أن حياتنا ستكون جحيماً لا يطاق ، و البلاد غريبة ...

قبولي مغامرة خطرة ... نسبة نجاحها ضئيلة ... لا يمكن أن أغامر بشهادتي و علمي و حياتي ... و المستقبل الذي أتت به أمي اليوم ؟

إن ما قالته أمي أقرب إلى الخيال ... لا يمكنني حتى أن أحلم به ... لقد تعلمت ألا أحلم ... ألا أزيف الواقع و أنا أعلم كل العلم بأن أبي لا يمكن أن يوافق على سفري إن أنا رفضت عريسه ... ما أجمل أن يكون أمر العريس هذا كابوس ... لكنه حقيقة ... واقع ... ماذا سأفعل سأتخذ القرار بنفسي ...

وتعود صورة أبي تلوح بتهديداته الحاسمة القاسية ... فأقول لنفسي من جديد ... ماذا لو كان طيباً متفهماً ... علمته الغربة المحافظة على عائلته و التعلق بها ... لنشلني من تعاسة مللت منها و سئمت ظلالها ... لكنه يعمل مع أبي و يقضيان معاً أوقاتاً طويلة فهل تكون طباعهما متشابهة ... و أعود بعد سنة أو سنوات مطلقة مثل أمي ... و معي طفلة تعيسة ... تعيش حياتي مجدداً ... و الحل ؟؟؟

تنبهت على صوت فرامل قوي لسيارة قادمة نحوي ... تراجعت بسرعة مخيفة و إذا بالسائق يلعن و يشتم ... يبدو أنني كنت أقطع الشارع دون انتباه ... الحل ؟؟؟ القرار ... لي وحدي ...

اعتقد أن أهون الشرين هو قبول الخطبة ... فهي من جهة تنجيني من غضب قد يكون ساحقاً علي من أبي فأوفر على نفسي و عليه مجادلة قد تصل إلى العراك ...

و من جهة أخرى أتعرف عليه أكثر و يتعرف هو علي فأن وجدنا أن بيننا ما يمكن أن يقوي رباطاً المفروض أنه أبدي فلا بأس أن ينتشلني مما أنا فيه ...

سأشترط فقط ألاّ يتم الزواج بسرعة ... فإن لم يستطع تمديد إجازته فليكن الزواج في السنة المقبلة .. أكون خلالها قد أنهيت دراستي و حققت أحد أغلى أحلامي ... حينها لن أندم على شيء ... سيكون المستقبل أمامي مفتوحاً إن لم نتفق ... و باستطاعتي اللحاق بأمي و تدبير أموري ... المهم أن أتخرج ...

انفرجت أساريري ... تسارعت خطاي .. وددت أن أركض ... أن أرقص ... لقد اتخذت قراري ... ابتسم قلبي ... ها أنا أعتمد على نفسي ... سأدافع عن قراري بكل قواي ... لأني مقتنعة به ... سأناقش والدي بموضوعية و أطرح أمامه الحجج ... و لن تعوزني الوسيلة فأنا بعد أشهر سأصبح محامية ... لن يكون رفضي عشوائيا يرتدي عباءة التحدي بل دفاعاً عن قرار ... اتخذته بنفسي و أنا سأتحمل النتائج و لن ألوم أحداً في حال الفشل ... و لن يحس أحد بالندم نحوي ...

أحسست بالثقة تجري في عروقي ... فأنا أخطو أولى خطواتي نحو النضوج و المستقبل بنفسي و بقراري .